البلاعة

أجلس على صخرة عالية، بعد الجزر وانحسار المياه، أتأمل سحب اليأس تحركها رياح الألم، فتنفخ فيها الروح كلما ظننت أنها انقشعت إلى الأبد. أرى محيط الحزن والذنب والندم يثور وأتمنى أن يبتلع جسدي لترقد روحي في قاعه في سلام. أرى دوامة تتكون أمامي وكأنها إعصارًا شديدًا. لا أهرب. لا أرمي طفلي في وسطه. أراني أفتح محفظتي وأبدأ في تقديم كل ما أملك من مال كقربان لعلنا ننجو. تبتل الأوراق النقدية وتسقط في القاع. يهضمها وحش الخوف من الفقد بسرعة ونهم.

أحيانًا أسأل نفسي، عن سبب كل هذا المجهود وصرف كل هذه النقود. لماذا لا أقدم «العادي» وأتركه لنصيبه. لماذا كل هذه الأنشطة والتدريبات واللغات والفسح وتنمية المهارات؟ سينمو مثلما ينمو الجميع! ستمر الأيام والأعوام ولن تنتظره أو تنتظرني! «يكبر زي ما يكبر»! بعدما يكبر يمكنه أن يصرف على نفسه ويتعلم ما يشاء. أترك نفسي لأفكاري وأتخيل أنني قد تخففت من أحمالي والتزاماتي وأعبائي. أبتسم. أكاد أن آخذ القرار! سألغي كل الدروس وأتوقف عن كل الأنشطة «ولن أهتم بما يحدث».

يأتيني صدى صوت الذنب والندم من أرجاء المحيط! ذبذبات وليست كلمات! ذبذبات تخترق جسدي وتتلاعب بعقلي! موجات لا أعرف من يتحكم بقوتها وقسوتها! تحت وطأة الخوف من المجهول، واللوم والاتهام بالتقصير، أتراجع! هذا طريق مرسوم لي! في أوقات سأسير فيه بخطوات واثقة، وستأتي أوقات تتردد خطوتي وتتوتر. قد أجري وقد أقفز وقد أزحف، لكن لا مفر من الطريق المرسوم!

كلما كبر صغيري كلما زادت التحديات، وكلما زادت الضغوط عليه وعليَّ، وكلما زاد قلقي وخوفي من المستقبل، تهتز رؤيتي وقدرتي على التركيز. تتلاعب قوى خفية بالخط الفاصل بين احترام قدرات الطفل وأن «آخره كده»، واحترام حق الطفل في الوصول بهذه القدرات لمنتهاها.

مشكلة مثل الديسبراكسيا لا تزول من تلقاء نفسها مع تقدم العمر، لكنها تحتاج إلى تدريبات كثيرة جدًّا رياضية لتقوية تلك العضلات الضعيفة لتتمكن من تأدية الحركات المطلوبة منها، وتدريبات أخرى للتوازن، وتدريبات أخرى للتوافق بين نصف الجسد الأيمن والنصف الأيسر. هناك أيضًا تدريبات عضلات اليد على الحركة الدقيقة وعلى إحكام القبضة وعلى قوة الضغط على القلم. الأهم تدريبات السمع والموسيقا، وتدريبات اللغة والتخاطب واللسان.

أنظر إلى وجه «آدم» وهو نائم، وأتخيل حواراتنا في المستقبل؛ هل سيلومني على عدم الصبر عليه لتعليمه الإنجليزية والصينية كما نويت؟ هل سيلومني على قسوتي الظاهرية أحيانًا؟ هل سيلومني على التقصير في حقه؟ هل سيلومني على ضغوطي عليه؟ أغرق كل ليلة في دواماتي وأسئلتي واكتئابي، ثم أستيقظ لأكمل واجبي نحو ابني وأنا أتأرجح بين الأمل واليأس. كل ما أعلمه اليوم أن رحلة تعليم «آدم» ستكون رحلة شاقة مرهقة، وسيبذل أضعاف ما يبذله غيره لإتقان نفس الشيء.

أتذكر رسائل الأمهات اللواتي يشكين من اختبارات القبول بالمدارس، وكأنهن يحاولن جاهدات أن ينتقوا أطفالًا بلا تحديات أو إعاقات أو صعوبات من أي شكل. في الاختبارات، يطلبون من طفل بعمر الثالثة أو الرابعة أن يسير ويجري ويقفز ويحجل ليتأكدوا أنه لا يعاني من

صعوبات حركية، ويطلبون منه أن يجلس ويجيب ويكتب ويرسم ويتتبع الخطوط والحروف، ويطلبون منه أن يتحدث بالعربية والإنجليزية والفرنسية ليطمئنوا على نطقه وعلى قدراته، ويطلبون منه أن يكون هادئًا محترمًا ليتأكدوا أنه لن يشيع الفوضى في الفصل.

أتذكر أسئلة «الناس»، المتعجبين من نطق «آدم»، عن عمره. أتذكر لومهم لي، واتهامي بعدم اهتمامي باللغة العربية، ثم يسألون عن أسباب عدم تحدثه بالإنجليزية بطلاقة مثلي. تعليقات سخيفة من أشخاص سخفاء عديمي الإحساس. لقد اتخذت قرار التعليم المنزلي وقرار تعلُم المونتيسوري بصورة متخصصة منذ سنوات عديدة قبل أن أدرك وجود الديسبراكسيا ودرجة تأثيرها على حياتنا. كم ساعدني نهج المونتيسوري على العمل مع ابني بصورة متخصصة ودقيقة أثرت بالإيجاب عليه وعلى قدراته على جميع المستويات. تقول عمتي إن كلهم _الأطفال_ يكبرون، وتقول أمي أن أستمر في المحاولة حتى سن الثامنة وسأجد أنه تغير تمامًا وأصبح «طبيعيًّا».

سأصدقهما!